

اللس والكلاب

د. لويس عوض

«من المستحيل تحديد مصدر النباح الذى ينطلق مع الهواء فى كل موقع ولا أمل فى الهروب من الظلام بالجرى فى الظلام».

نجيب محفوظ

لكم ترددت قبل أن أكتب هذا المقال؟

ترددت أولاً فى أن أكتبه أو لا أكتبه؛ فأنا لم أكتب عن نجيب محفوظ كلمة واحدة رغم كثرة ما كتب وكثرة ما كتبت. ترددت تردد المتهيب، ففى أكثر من مرة يصدر لنجيب محفوظ كتاب جديد كنت أقرؤه، ثم أمسك بالقلم لأكتب، فيتوقف القلم تهيباً. ولم أكن أعرف لهذا التهيب علة إلا خشيتى من أن أظلمه وأظلم معه نفسى. فما من مرة صدر لنجيب محفوظ كتاب جديد إلا وانطلق كوراس النقاد من أنهر الصحف وعلى موجات الإذاعة وفى حلقات الندوات بتمجيده تمجيداً بلا حساب أو يوشك أن يكون بلا حساب. وما عرفت كاتباً من الكتاب ظل مغموراً مغبوناً مهملاً عامة حياته الأدبية دون سبب معلوم ثم تفتحت أمامه كل سبل المجد دفعة واحدة فى السنوات الخمس الأخيرة دون سبب معلوم أيضاً مثل نجيب محفوظ. وما عرفت كاتباً رضى عنه اليمين والوسط واليسار ورضى عنه القديم والحديث ومن هم بين بين مثل نجيب محفوظ؛ فنجيب محفوظ قد غدا فى بلادنا مؤسسة أدبية أو فنية مستقرة تشبه تلك المؤسسات الكثيرة التى تقرأ عنها ولعلك لا تعرف ما يجرى بداخلها وهى مع ذلك قائمة وشامخة وربما جاءها السياح أو جىء بهم ليتفقدوها فيما يتفقدون

من معالم نهضتنا الحديثة. والأغرب من هذا أن هذه المؤسسة التي هي في نجيب محفوظ ليست بالمؤسسة الحكومية التي تستمد قوتها من الاعتراف الرسمي فحسب بل هل مؤسسة شعبية أيضا يتحدث عنها الناس بمحض الاختيار في القهوة وفي البيت وفي نوادي المتأدبين والبسطاء.

بعد هذا كله لم يعد صعبا تفسير تهيبى العظيم كلما سولت لى نفسى أن أتناول نجيب محفوظ. فنجيب محفوظ عندى كاتب من أولئك الكتاب القلائل فى تاريخ الأدب فى الشرق والغرب، كلما قرأته غلى الدم فى عروقى وودت لو أنى أصكه صكا شديدا، ونجيب محفوظ فى الوقت نفسه هو عندى كاتب من أولئك الكتاب القلائل فى تاريخ الأدب فى الشرق والغرب كلما قرأته عشت زمنا بين أمجاد الإنسان وقالت نفسى: ليس فن بعد هذا الفن ولا مرتقى فوق هذه القمم الشاهقة. وليس يجوز لمثلى أن يفسد على الناس أفراحهم كلما احتفلوا بوليد جديد، وليس يجوز لمثلى أن يشارك فى عرس عظيم كل من فيه منتش إن بأصفى السلاف وإن بمجرد الإيحاء: فلقد اكتشفت فيما اكتشفت أن بعض من كتبوا عن «ثلاثية» نجيب محفوظ الشهيرة مثلا لم يقرأوا منها إلا صفحات معدودات وأنا شخصيا أعلن وأعترف على الملأ أنى لم أقرأ منها إلا جزءها الأول وأعلن وأعترف على الملأ أنى لن أقربها ثانية إلا حين يتاح لى أن أعتكف أسبوعين فى مرسى مطروح أو فى ظروف تتيح التفرغ لقراءة مثل هذا العمل الأدبى الخطير.

ورغم أنى قرأت أكثر ما كتب نجيب محفوظ فلن أتحدث هنا عن نجيب محفوظ، ولن أتحدث إلا عن شىء واحد هو قصته الأخيرة الصغيرة «اللس والكلاب». سأتحدث عنها لا لأنى أعتقد أنها أهم ما كتب ولا لأنها تمثل فن نجيب محفوظ، ولكن لأشرح من خلالها فن نجيب محفوظ فى «اللس والكلاب» بلا زيادة ولا نقصان.

فإن أردت أن تعرف موضوع هذه القصة فى كلمات فقل إنها قصة جان فالجان فى القرن العشرين أو شىء من هذا القبيل. وجان فالجان هو بطل رواية «البؤساء» لفكتور هيغو، وهو نموذج اللص الذى يطارده المجتمع حتى بعد أن يستوفى قصاصه. كذلك الحال فى رواية نجيب محفوظ: فيها سعيد مهران أو سعيد فالجان. لص شبه مثقف يدخل السجن فى اللصوصية، وحين يخرج من السجن تبدأ مأساته الحقيقية، فهو

يجد أن زوجته التي طلقته وهو في سجنه قد خانت، وتزوجت من أخلص صديق له في عصابته، ويجد أن ابنته الصغيرة سناء تنكره إنكار الولد الذي لم ير أباه أبداً، ويجد أن أصدق أصدقائه بين المتعلمين وهو الأستاذ رءوف علوان المحامى قد خان كل ما كان يبشر به من مبادئ لنصرة الفقراء وتأييهم على الأغنياء، وباع تعاليمه الاشتراكية أو الشيوعية لا أدري (فنجيب محفوظ لا يحدد لنا بالضبط هذه التعاليم) مقابل قصر جميل قرب الجيزة. وقد كان المحامى رءوف علوان مثله الأعلى لأنه هو الذى فلسف لسعيد مهران اللصوصية وجعل من سرقة الفقراء للأغنياء مذهباً، وعمق فى هذا اللص - شبه المثقف - نوازع النهب والسلب والسطو وقطع الطريق حتى غدا بفضل زعيم عصابة خطيرة.

ويبدو أن سعيد مهران قد تبلورت فى ضميره فكرة «روبين هود» أو «الرصاصة الشريفة» أو يبدو أنه رسم لنفسه مثلاً أعلى فى الحياة هو أدهم الشرقاوى الذى جاء ذكره فى المواويل أنه يسرق الأغنياء ليعطى الفقراء، أقول يبدو لأن نجيب محفوظ لم يرسم هذا الجانب من شخصية سعيد مهران بوضوح كاف.

أخلص أصدقائه يسلمه للبوليس ليخطف زوجته وماله وأحب امرأة فى حياته تتخلى عنه للتزوج من تابعه الخائن الذى لا يساوى قلامة ظفر، وبنته الصغيرة محور أحلامه تنكره إنكارها لرجل جاء من الطريق، وأستاذه وملهمه يبيع كل ما نادى به من مبادئ مقابل الجاه والحياة الناعمة. هؤلاء هم الكلاب الذين أحاطوا باللص ساعة خروجه من السجن؛ فلم يبق أمام اللص إلا سبيل واحد هو مطاردة الكلاب وتدميرها الواحد بعد الآخر.

وفى عملية المطاردة هذه تبين أن القدر نفسه يقف فى سخرية مريرة إلى جانب الكلاب؛ فحين يتسلل سعيد مهران ليلاً ليغتال صاحبه اللص الخائن عيش تفتك رصاصاته بمجهول برىء استأجر شقته من بعده وحين تسلل سعيد مهران ليلاً ليغتال المصلح الاجتماعى الدعى رءوف علوان تفتك رصاصاته بالبواب المسكين البرىء.

وهكذا يفر سعيد مهران كالقنينة وقد خابت كل آماله فى تطهير الدنيا من الكلاب. ويبدأ طراد من نوع جديد، طراد المجتمع لهذا السفاح الجديد، فالبوليس وراءه لا

يهدأ لأن هذا واجبه والرأى العام وراءه لا يهدأ لأن الصحافة تستشير، أما هو فهو معتصم أنا عند بغى عاشقة له اسمها نور تعيش فى بيت على حافة المقابر ومعتصم أنا بين المقابر نفسها حتى يحاصره رجال الأمن من كل جانب ويوشك أن ينزل بهم وبنفسه الدمار، ولكن قواه تخذله فى اللحظة الأخيرة فيستسلم للبوليس .

أما ماذا فعل نجيب محفوظ الفنان فى «اللص والكلاب» فهو قد أثبت بما لا يدع مجالاً للشك أنه سيد من بينى البناء فى أدبنا القصصى . فهو مهندس من أعظم طراز يعمل بالمسطرة والفرجار ولا أعتقد أنى أبالغ فى القول إن قلت إن بناء اللص والكلاب لا يقلل إحكاماً عن بناء أعظم ما قرأت فى القصص الكلاسيكى العالمى، كل شىء فيها محسوب بأدق حساب، ولا أريد أن أقول البداية والوسط والنهاية كما يقول الأرسطاطاليسيون، ولكن أكتفى بأن أقول إن كل خصائص القصة الكلاسيكية وصلت فيه إلى حد الكمال. فهو يعرف أين يتحرك وأين يقف وأين يتكلم وأين يصمت، وهو يهتم بالصقل والصحة والسلامة والاقتصاد والتوازن اهتماماً ليس بعده اهتمام، وهو لا يتوه فى التفاصيل ولكن يركز على الجوهريات .

ولكن غريبة الغرائب فى «اللص والكلاب» أنها قصة كلاسيكية القالب رومانسية المضمون . فهذا اللص الشريف إن صح هذا التعبير شخصية ملتعبة الخيال تستطيع أن تعيش بشهوة واحدة فى الحياة، هى شهوة الانتقام بعد القوة الملتعبة العنيدة التى سيطرت على شخصيات الأدب الرومانى العظيم كشخصية هيثكليف فى «مرتفعات وذرنيج» لإميلى بروونتى وشخصية آدمون دانت فى «الكونت دى مونت كريستو» لإسكندر دوماس الأب وغيرهما كثير فى أدب الرومانسيين حيث تسمم عقل البطل ووجدانه أو تسيطر عليه فكرة واحدة أو شهوة واحدة آكلة مدمرة تعصف به وبكل من حوله .

كيف أتيج لنجيب محفوظ، وهو على غير ما يذهب النقاد، عدو الواقعية اللدود، أن يصب كل هذا الوجدان الرومانسى فى هذا الإحكام الشكلى الكلاسيكى، هذه هى الظاهرة المحيرة حقاً فى أدب هذا الأديب العظيم، وهى أيضاً علة هذا الصدع الكبير فى هذا الأديب الكبير، الصدع بين مادة الفن وصورته، ذلك الصدع الذى نلمس آثاره فى باطن قصة «اللص والكلاب» .

وهذا الصدع ينجلي أول ما ينجلي فى بناء نجيب محفوظ لشخصياته، فهى بوجه عام شخصيات مرسومة من الخارج، مرسومة بإحكام ولكنها مرسومة من الخارج رغم هذا الإحكام. فهذه الشخصيات باستثناء شخصية الصوفى الفقير إلى الله، وربما شخصية المومس «نور» إلى حد لا بأس به. حين أقول إنها مرسومة من الخارج أقصد أن اللص الشريف سعيد مهران والمحامى المزيّف رءوف علوان وعامة اللصوص وقطاع الطرق الذين صورهم نجيب محفوظ لا يتكلمون بلغتهم وإنما بلغة نجيب محفوظ، ولا يفكرون بعقولهم وإنما يفكرون بعقل نجيب محفوظ، خواطرهم خواطر نجيب محفوظ وذكرياتهم ذكريات نجيب محفوظ، لست أقصد نجيب محفوظ الرجل وإنما أقصد نجيب محفوظ الفنان. كل هؤلاء ليسوا لصوصا ولا بغايا ولكنهم يمثلون فكرة نجيب محفوظ عن اللصوص والبغايا، انظر هذا الحوار بين اللص الشريف وبين الشيخ الصوفى على الجنىدى:

«هل تستطيع أن تقيم ظل شىء معوج؟»

فقال الشيخ برقة:

- أنا لا أهتم بالظلال!«.

وأنا لا أعتقد أن لصًا مهما كان شبه مثقف قادر على أن يجادل رجلا من رجال الله فى مشكلة تقويم ظلال الأشياء المعوجة. فإذا ما توغلا فى الحديث قال الشيخ:

- قال سيدى إنى لا أنظر فى المرأة كل يوم مرارا مخافة أن يكون قد اسود وجهى.

- أنت؟

- بل سيدى نفسه!

فتساءل ساخرًا:

- فكيف ينظر الأوغاد فى المرأة كل ساعة«.

أما الأوغاد فهم الكلاب الذين يطاردهم اللص أو يطاردونه، فالمطاردة فى نجيب محفوظ متبادلة لأن سعيد مهران فريسة وكلب صيد معًا سواء قبل سجنه أو بعد خروجه من السجن والمجتمع فرائس وكلاب صيد معًا. ولست أعتقد أن اللص

مهما كان مثقفاً أو شبه مثقف مستطيع أن يفكر فى هذه الوقفة الفلسفية التى تذكرنا
لابد بخوف كاليبان من أن ينظر إلى نفسه فى المرآة فى أوسكار وايلد.

ولو أنى أردت أن أسوق من أمثال هذه الخواطر والملاحظات والتعليقات ما
يوضح رأى هذا لسقت مائة مثل ومثل.

ولكن كل هذا لا يغض من جمال هذا العمل الفنى العظيم. فنجيب محفوظ ومعه
عامة نقاد الكلاسيكية مستطيع أن يقول: أنا لا أصف لك الواقع بحذافيره وبتفاصيله
ولكنى أصف لك الواقع فى جوهره وكمياته. ليس من الضرورى أن أصف لك كيف
واقع سعيد مهران المومس نور ولكنه يكفينى أن أوحى لك بأن الليلة حين انتهت
كانت قبلة امتنان «وكانت ثمة فراشة تعانق المصباح العارى فى تلك الساعة من
الليل».

فإن أردت أن تعرف من بطل هذه القصة الجميلة قلت لك إنه ليس سعيد مهران
ولكن شخص آخر لا يفكر أحد فيه، وهو المومس نور، بل أكاد أقول إن شخصية
المومس نور من أجمل الشخصيات التى صادفتها فى أية قصة من روائع الأدب
العالمى. ولا تعجب من هذا القول لأن نجيب محفوظ جعل منها البصيص الوحيد
الذى يختلج (ولا أقول ينير) وسط هذا الظلام الحالك.

أما رمزيتها فلا يجوز أن تخفى على أحد، فهى شىء أشبه ما يكون إلى نور الخير،
وسط غابة ظلماء لا مكان فيها إلا للصمصوم والكلاب. نور هى النور الوحيد فى حياة
سعيد مهران، نور خافت حقاً، نور لا يرغب فيه أحد حقاً، حتى أحوج الناس إليه،
نور لا يشع وسط الأحياء ولكنه يختلج كالنجم الباهت على تخوم الحية حيث يلتقى
الموتى بالأحياء عند مقابر الإمام. وهى أخيراً نور زائف، زيفها من زيف هذه البغى،
التي تستطيع أن تجمع فى وقت واحد بين أظهر معانى الحب والتضحية وبين بيع
الهوى كروتين يومى لا يدخل فى اختصاص علم الأخلاق.

وحتى هذا النور البعيد الشاحب المختلج بين تخوم الموتى وتخوم الأحياء، حتى
هذا البصيص أطفأه نجيب محفوظ حين جعل المومس نور تختفى فجأة، لا أحد
يعرف كيف ولماذا، ولكن نرجح - بسبب مهنتها وهى الدعارة - أنها وقعت فى أيدي
رجال البوليس. اختفت فى اللحظة التى كان فيها اللص المطارد أحوج ما يكون لا

أقول إلى يد منقذة أو قبلة حانية ولكن إلى أربعة جدران يحتمى فيها ولقمة عيش يتبلغ بها بعيداً عن عيون مطارديه.

فهل رأيت تشاؤماً أكثر من هذا التشاؤم الذى تفصح عنه قصة «اللس والكلاب»؟ أنا ما رأيت تشاؤماً من هذا التشاؤم إلا فى قصص دوستويفسكى وبلزاك، ولا تستكثر على نجيب محفوظ صحبته دوستويفسكى وبلزاك فهو أخ لهما صغير مهما اختلف عنهما فى منهج فنه وفى صورة فنه.

وهل رأيت تشاؤماً أكثر من هذه الصورة التى رسمها نجيب محفوظ للصومع أشباح وكلاب، أشباح يطارد بعضهم بعضاً بين القبور. فكأنما القرافة فى نجيب محفوظ هى رمز الدنيا كلها، ولا أقول رمز القاهرة وحدها أو هى الأرض الخراب التى حدثنا عنها الشعراء فى شعرهم الحزين، وكأنما البشر من الفصيلتين يعيشون فى مأساة طراد خائب من الجانبيين ساحتها ليست عالم النور ولا عالم الظلمات ولكن تلك التخوم التى يلتقى فيها الموت بالحياة لحظة ثم يشمل الكون كله ظلام ساكن عميق.

عن كتاب «دراسات فى الأدب والنقد»

القاهرة ١٩٦٤.